العلم

هل هو نعمة أم نقمة ؟

قد يُدهش بعضكم أن أتساءل عما إذا كان العلم نعمة أم نقمة . أو يمكن أن يكون العلم إلا نعمة لا تعلو عليها نعمة ؟ أو لم تتمتع بفضله كل مظاهر التقدم والحضارة والرفاهية ؟ أليس العلم النور الذي يهتدي به الانسان العاقل ، والقوة التي تمكنه من السيطرة على الطبيعة النامية حتى قهرها واستغلها لما فيه منفعته وراحته ؟ أليس العلم هو ما يميز شعباً على شعب وفرداً على فرد ؟ أوليست المقاييس العلمية هي مقاييس الشعوب الراقية ؟ ألم يصبح العلم ضرورة لكل من يريد مسايرة العصر ومجاراته ؟ إن نعم العلم لملموسة في حياتنا اليومية في جميع نواحيها . فالمواصلات وما انتهت إليه من سرعة في البر والبحر والجو جعلت المسافات لا حساب لها إطلاقاً وأصبح العالم في أطرافه المتباعدة عالماً واحداً وضاقت القارة الأرضية بالانسان فأخذ يحاول الوصول الى القمر والى المريخ ثم أن سرعة المواصلات كثيراً ما أفادت في تعرف الشعوب المختلفة بعضها ببعض وكثيراً ما سهلت انجاز الأعمال بسرعة لم تكن الأجيال السابقة تحلم بها .

ومن آثار العلم أنه رفع مستوى المعيشة وخفض اعباء الحياة الى حدها الأدنى إذ تستعمل اليوم الآلة حيث كان يطلب من العامل أن يقوم بعمل شاق ، ووقت طويل . أما الآلة فتمتاز بالسرعة والاتقان .

فالراديو ، ألم يجعل في متناول الجميع تتبع الأخبار العالمية والمحلية ؟ أولم يساعد في توسيع دائرة معلومات الفرد في مواضيع شتى الى جانب ما يقدم من برامج الترفيه والتسلية .

والهاتف أليس له فضل كبير في تسهيل الاتصالات بين الناس . إننا نعرف قيمته ومزاياه

---

(١) نص محاضرة ألقيت في دار نادي الاتحاد الارثوذكسي في القاهرة

عندما نحرم منه ولو يوماً لسبب من الأسباب ، فالسرعة التي اتخذنا عليها في انجاز أعمالنا أضفت على الوقت قيمة لم تكن له من قبل فأصبحت الثانية لها قيمتها وحسابها .

لقد كان فضل العلم في حياة الانسان فضل الأعجوبة إذ غيّرها رأساً على عقب وأتى بمعجزات ليس أقلها أثراً ما يقوم به الطب الحديث من معالجة ووقاية وما توصل إليه علم النفس من النفاذ الى باطن العقل ومعالجة عوارضه الظاهر منها والخفي ومساعدة المرء على حل مشاكله النفسية وعلى التوفيق بينه وبين بيئته إذا كان هناك صراع بينهما .

هذه قلة من كثرة مما يمكن أن يقال في العلم ، وسرد سريع لآثاره في حياتنا اليومية تعرّضت له ، لا دليل لمن أذهنه تساؤلي عن فوائد العلم ، أنه على حق في دهشته، وأن العلم في حد ذاته وفي نتائجه العملية نعمة عظيمة وبرهان ملموس يشيد بالعقل الانساني وما توصل إليه من رقي يستحق الاجلال والاكبار . ومع ذلك، ومع أن الاعتراف بمآثر العلم وفوائده ما هو إلا إقرار الحق والواقع ، إلا أن التساؤل عما اذا كان العلم نعمة أم نقمة له مبررات قوية كثيرة .

فلنلق نظرة المدقق على عالم اليوم . هل أدى التقدم العلمي الى إسعاد الشعوب وانتشالها ؟ وإلى هناءة الأفراد وراحتهم ؟ هل كانت نتيجة العلم أن حكّم الانسان عقله في تصرفاته بدلاً من الانسياق وراء غرائزه وعاطفته فسلك السبيل السليم ، القويم ؟ هل بات المجتمع وحدة يسودها الوئام والتفاهم ، والاتساق يكمل أفرادها بعضهم بعضاً ويعمل الفرد لمصلحة الجماعة ؟ هل يستعمل الأقوياء قوتهم ونفوذهم لاحقاق الحق ومناصرة المستضعف ، والدفاع عن المبادىء السامية التي بها وحدها يعلو الانسان الى المكانة اللائقة به ؟ هل طبعت العلاقات بين الأفراد والشعوب بروح الثقة المتبادلة والتسامح والاخوة ؟ أيتطلع العالم الى مستقبل بهيج ، آمن بفضل جهود القابضين على أزمة الحكم والمسيطرين على مصير الشعوب ؟ هل العالم تشغله المشاريع العمرانية ، الانشائية التي ترجع على الانسانية بالخير المتزايد ؟

أين منا اليوم هذا كله ؟ إن العالم قلق ، متعب ، يكتنفه الاضطراب والفوضى والذعر من المستقبل الذي يبدو مظلماً ، حالكاً .

لقد كثرت المشاكل وتسعت الخلافات حتى لم نعد نجد بقعة من بقاع الأرض تعرف الهدوء والطمأنينة ? وتقف الشعوب حائرة ، مروعة تتوقع كارثة قد تدمر العالم اذا استمرت الحالة الدولية على ما هي الآن .

لقب عصرنا بعصر العلم والحضارة وفخرنا بأننا سبقنا الاجيال كلها وحققنا تقدماً وصل بالانسان الى قمة المجد والعظمة . وفي العصر نفسه أضرمت نار حربين عالميتين ما زالت الشعوب تئن تحت ما تركتا من خراب وفوضى ، وسببتا من خسائر ومآسي . حربان متتاليتان وقف الانسان فيهما ضد أخيه الانسان فقتل وهدم بكل ما أكسبه علمه من إحكام واتقان ، هدم بنظام وقتل بتفنن وتبصر واستعمل أحدث الاسلحة وأكثرها فتكا وجندت جميع القوى والمقررات لاختراع وسائل الهدم والتخريب ، وخرجت الدول المنتصرة منها والمنكسرة من هاتين الحربين أضعف ما يمكن أن تصل اليه وعانت الشعوب ما عانت من المصاعب والحرمان .

ولكن هل اتعظت البشرية بما أودى بها اليه طمعها وحماقتها ? هل عقدت العزم على أن تقيم على انقاض ما هدمت صرحاً ثابتاً ، دائماً ? لقد ألفت بعد الحرب العالمية الأولى عصبة أمم لتبني صرح سلام مستديم ولكنها باءت بالفشل لأن بعض الدول الاعضاء لم يعمل بالمبادىء التي أقيمت عصبة الامم على أساسها بل اتخذتها الدول الكبيرة أداة لتنفيذ مآربها ، فنقضت عهوداً كانت قد قطعتها للشعوب التي ساعدتها أملاً بنيل الحرية والاستقلال ووضعتها تحت سيطرتها وتقاسمتها في ما بينها مناطق نفوذ كما يتقاسم اللصوص ما ينهبون ويسلبون . وها هو التاريخ يعيد نفسه وها هي هيئة الأمم تسير على خطى عصبة الأمم والى نهايتها .

* * *

علق العالم على هيئة الأمم أملاً كبيراً لحل المشاكل الدولية ولكن هيئة الأمم زادت هذه المشاكل تعقيداً وقد أصبحت مسرحاً لصراع السافر بين كتلتين تتسابقان في التوسع والسيادة . إن خطراً عظيماً يحدق بالعالم أجمع إذ أنه أصبح أمراً محتملاً أن تقع حرب عالمية ثالثة ، حرب ذرية طاحنة لا ترحم ولا تبقي .

هذا ما انتهى إليه العصرُ العلمي ، عصر النور والمدنية ويا لها من نهاية !

ما قيمةُ العلم اذا كانت هذه نتائجهُ ؟ وما فائدة النور إذا كنا نعمد الى أن نعيش في ظلام ، وأين هي الحضارة إذا كنا نعيشُ على سُنة الأدغال ونلتقيها ؟ أين الرقي وأين التقدم ؟ أبقياس التقدم الحقيقي بما اخترع من آلات وما وُصِل إليه من سرعة تداول سرعة انتقال الصوت ؟ أبلغنا درجة الرقي لأننا حطمنا الذرّة ! ولكن ما فائدة هذا كله اذا كان يستعمل للهدم لا للبناء ويسوق الانسانية الى الفناء لا الى الهناء . كان بالامكان أن تستغل الذرّة أحسن استغلال لخدمة البشرية ومنفعتها ، ولكن طمع الدول الكبرى وقصر نظرها أرادا أن يكون هذا الاكتشاف لعنة وخطراً بدلاً من أن يكون نعمةً وبركة .

* * *

أين الحضارة التي نفخر بها ؟ هل توصلنا الى جعل الحق فوق القوّة ؟ هل من الحضارة أن تستعمر الدول الكبيرة الدول الصغيرة وتستغلها بحجة الانسانية والتفوق العلمي ؟ وما هو هذا العلم الذي باسمه تُهضمُ حقوق الشعوب وتغتصب ؟ وكيف يمكن أن يكون العلم نعمةً إذا كان يؤدي الى ازدياد التنافس والتنافر بين الدول والأفراد ؟ ما فائدة العلم اذا كان يزيد الناس أنانية ووحشية ؟ ما فائدته اذا كان سبباً لهدم القيم الاخلاقية والأواصر الاجتماعية ؟ ما قيمته اذا كان يستخدم للشر لا للخير ؟

نعم ، إنه ليحق لنا أن نتساءل عما اذا كان العلم نعمة أم نقمة وتساؤلنا تسوّغه حالة العالم التعسة في عصر العلم .

إن العلم قوة هائلة يمكن استخدامها للخير وللشر .

والعلم نعمة اذا هدف تطبيقه الى العمران والسلام وهو نقمة اذا استعمله الانسان أداة لهدم نفسه بنفسه .

العلم نعمة يريدها الانسان نقمة ، وقد آن للانسان أن يشفق على نفسه وأن يفطن الى أنه انسان عاقل ، وانه ليس من العقل بشيء أن يجعل النعمة نقمة .

جاكلين نوري